بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لقد جمع الله ـ جلَّ وعلا ـ لنبيِّنا ﷺ بديعَ الكلِم، وجوامع الوصايا، وأكمل القول وأتمَّه وأحسنَه، ومن كان ذا صلةٍ وثيقةٍ بالسُّنَّة وهديِ خير العباد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فاز في دنياه وأخراه.

وهذه وقفةٌ مع وصيَّةٍ وجيزةٍ وموعظةٍ بليغةٍ مأثورةٍ عن نبيِّنا الكريم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ جمعت الخير كلَّه ووقَّته؛ ففي «مسند الإمام أحمد»، و«سنن ابن ماجه» وغيرهما من حديث أبي أيُّوب الأنصاري رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: عِظْنِي وَأَوْجِزْ، وفي رواية عَلِّمْنِي وَأَوْجِزْ، فَقَالَ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي يَدَيِ النَّاسِ**»[١] وهو حديثٌ حسنٌ بما له من شواهد؛ وقد جمع هذا الحديث العظيم ثلاثة وصايا عظيمةً جمعت الخير كلَّه، مَن فهمها وعملَ بها حازَ الخير كلَّه في دنياه وأخراه.

الوصيَّة الأولى: وصيَّةٌ بالصَّلاة والعناية بها وحسن أدائها.

والوصيَّة الثَّانية: وصيَّةٌ بحفظ اللِّسان وصيانته.

والوصيَّة الثَّالثة: دعوةٌ إلى القناعة وتعلُّق القلب بالله وحده.

في الوصيَّة الأولى: دعا نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ من قام في صلاته ـ أي شرع فيها ـ أن يصلِّي صلاة مودِّع، ومن المعلوم لدى الجميع أنَّ المودِّع يستقصي في الأقوال والأفعال ما لا يستقصي غيرُه، وهذا معروفٌ في أسفار النَّاس وتنقُّلاتهم؛ فمن ينتقل من بلدٍ على أمل العودة له ليس شأنه كشأن من ينتقل منه على أمل عدم العودة إليه، فالمودِّع يستقصي ما لا يستقصي غيره، فإذا صلَّى العبد صلاته مستحضرًا أنَّها صلاته الأخيرة، وأنَّه لن يصلِّيَ غيرها جَدَّ واجتهد فيها، وأحسنَ في أدائها، وأتقنَ ركوعَها وسجودَها وواجباتها ومستحبَّاتها.

(١) رواه أحمد (٢٣٤٩٨)، وابن ماجه (٤١٧١)، انظر: «الصَّحيحة» (٤٠١).

ولهذا ينبغي على عبد الله المؤمن أن يستَحضر هذه الوصيَّة في كلِّ صلاةٍ يصلِّيها؛ يصلِّي صلاته صلاةَ مودِّع، يستَشعر من خلال ذلك أنَّها الصَّلاة الأخيرة، وأنَّه لن يصلِّيَ بعدها، فإذا استشعر ذلك دعاه هذا الاستشعار إلى حسن الأداء، وتمام الإتقان.

ومن أحسنَ في صلاته ساقته إلى كلِّ خيرٍ وفضيلة، ونهته عن كلِّ شرٍّ ورذيلة، وعُمِر قلبُه بالإيمان، وذاق بذلك طعمَ الإيمان وحلاوته، وكانت صلاتُه قرَّةَ عينٍ له، وراحةً وأُنسًا وسعادةً.

والوصيَّة الثَّانية: وصيَّةٌ بحفظ اللِّسان، وأنَّ اللِّسانَ أخطر ما يكونُ على الإنسان، وأنَّ الكلمةَ إذا لم تخرُج فإنَّ صاحبَها يملكها، أمَّا إذا خرجَت من لسانه ملكَتْه وتحمَّل تَبِعاتها، ولهذا قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**لَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا**»؛ أي جاهِد نفسَك على منع لسانك من كلِّ كلمةٍ تخشى أن تعتذر منها، وكلِّ كلمةٍ تتطلَّب منك اعتذارًا؛ فإنَّك ما لم تتكلَّم بها فإنَّك تملكها، وأمَّا إذا تكلَّمتَ بها ملكتكَ.

وفي وصيَّة النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لمعاذٍ رضي الله عنه قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى، يَا نَبِيَّ اللهِ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ـ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ ـ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[٢].

فاللِّسان له خطورةٌ بالغةٌ، وقد جاء في حديث ثابت عن رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ؛ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**»[٣].

وقول نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في هذه الوصيَّة الجامعة:

(٢) رواه أحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٣٦).

(٣) رواه أحمد (١١٩٠٨)، والترمذي (٢٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥١).

«**لَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا**» فيه دعوةٌ إلى محاسبة النَّفس فيما يقوله الإنسانُ، بأن يتأمَّل فيه؛ فإن وجده خيرًا تكلَّم به، وإن وجده شرًّا امتنع من قوله، وإن كانَ الَّذي سيقوله مشتَبهٌ عليه لا يدري أشرٌّ هو أم خيرٌ؛ يكفُّ عنه اتِّقاءً للشُّبهات، حتَّى يستبينَ له أمرُه، ولهذا قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[٤]، وكثيرٌ منَ النَّاس يورِّطون أنفسَهم ورطاتٍ عظيمةً بكلمةٍ يقولونها بألسنَتهم لا يُلقُون لها بالًا، ثمَّ يترتَّب عليها من التَّبِعات في الدُّنيا والآخرة ما لا يحمَدون عاقبتَه، والعاقل منَ النَّاس من يزن كلامَه، ويصونُ حديثَه، ولا يتكلَّم إلَّا كما قال نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بكلامٍ لا يحتاج معه إلى اعتذارٍ.

وقوله: «بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا» يحتمَل: أي عندما تقف بين يدَي الله، أو تعتذر منه غدًا: أي من النَّاس حينما يطالبونك بتَبِعات كلامك وأقوالك.

وعلى المعنى الأوَّل: فله تعلُّقٌ عظيمٌ بالصَّلاة، إذ بأيِّ عذرٍ يلقى المضيِّعُ للصَّلاة ربَّه غدًا، وهي أوَّل ما سيُسأل عنه.

والوصيَّة الثَّالثة؛ فيها دعوةٌ إلى القناعة، وتعليق القلب بالله وحده، واليأس تمامًا ممَّا في أيدي النَّاس، قال: «**وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي يَدَيِ النَّاسِ**»؛ أي أجمِع قلبَك، واعزِم وصمِّم في فؤادك على اليأس من كلِّ شيءٍ في يد النَّاس؛ فلا ترْجُه من جهتهم، وليكن رجاؤُك كلُّه بالله وحده ـ جلَّ وعلا ـ، وكما أنَّك بلسان مقالك لا تسأل إلَّا اللهَ، ولا تطلب إلَّا من الله؛ فعليك كذلك بلسانِ حالك أن لا ترجو إلَّا اللهَ، وأن تيأس من كلِّ أحدٍ إلَّا من الله، فتقطع الرَّجاءَ من كلِّ النَّاس، ويكون رجاؤك بالله وحدَه، والصَّلاة صلةٌ بينك وبين ربِّك؛ ففيها أكبرُ عونٍ لك على تحقيق هذا المطلب.

ومَن كان يائسًا ممَّا في أيدي النَّاس عاش حياتَه مهيبًا عزيزًا، ومَن كان قلبه معلَّقًا بما في أيدي النَّاس **عاش حياته مهينًا ذليلًا**.

(٤) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومَن كان قلبه معلَّقًا بالله لا يرجو إلَّا الله، ولا يطلب حاجته إلَّا من الله، ولا يتوكَّل إلَّا على الله كفاه الله عزَّ وجلَّ في دنياه وأخراه، والله ـ جلَّ وعلا ـ يقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٣٦]، ويقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ: ٣]، والتَّوفيق بيد الله وحده لا شريك له.

روى الإمام أحمد في «المسند»[٥] بسنَد ثابت عن عليٍّ رضي الله عنه: «كَانَ آخِرُ كَلَامِ رَسُولِ اللَّه ﷺ: **الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»، بل جاء ما هو أبلَغ من هذَا فيما رواه ابن ماجَه في «سننه»[٦] بسَند ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: «كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ حِينَ حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ وهُوَ يُغَرْغِرُ بِنَفْسِه: **الصَّلاة وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»، وجاء أيضًا من رواية أمِّ سلَمَة رضي الله عنها زَوج النَّبيِّ ﷺ «أنَّه كَانَ عَامَّةُ وَصِيَّةِ نَبِيِّ اللَّه ﷺ عِنْدَ مَوْته: «**الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»، حتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللَّه ﷺ يُلَجْلِجُهَا فِي صَدْرِهِ، وَمَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ»[٧].

وصيَّة أخرى:

«**الصَّلاة الصَّلاة**»؛ وصيَّة نبيِّكم ـ، وهي مِن آخِر ما سُمِع منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، فيا أيُّها المحبُّون للنَّبيِّ ﷺ: الصَّلاة الصَّلاة؛ فهي وصيَّتُه لكُم وعهدُه إليكم، جاء في «المسند» للإمام أحمد[٨] بإسناد جيِّد أنَّ الصَّلاة ذُكرت عند النَّبيِّ ﷺ يومًا فقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ القِيَامَة، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بنِ خَلَفٍ**»؛ أي أنَّ تارِكَ الصَّلاة غير

(٥) برقم (٥٨٥)، وأخرجه أبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦١٦).

(٦) برقم (٢٦٩٧)؛ وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٢١٧٨).

(٧) أخرجه أحمد (٢٦٤٨٣، ٢٦٦٨٤)، والنَّسائي في «الكبرى» (٧٠٦٠)؛ وصحَّح إسناده الألباني في «الإرواء» (٢٣٨/٧).

(٨) برقم (٦٥٧٦)؛ والحديث ضعَّفه الألباني في «ضعيف التَّرغيب» (٣١٢).

المحافظ عليها يُحشَر يوم القيامَة مع صناديد الكُفر وأعمِدَة الباطل ـ عياذًا بالله من ذلك ـ، وجاء في «صحيح مسلم»[٩] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاة**»، وجاء في «المسند»[١٠] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ؛ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»، وجاء في «صحيح البخاري»[١١] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، واسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ المُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ؛ فَلَا تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ**».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

فاتَّقوا اللَّهَ! أتباعَ النَّبيِّ ﷺ ومحبِّيه، واحفَظوا هذه الوصيَّة وتذكَّروا قولَه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في أيَّامِه ولحظاتِه الأخيرَة، وفي توديعِه أمَّتَه: «**الصَّلاة الصَّلاة**».

حي باحة (30)، رقم (28) الليدو-المحمدية- الجزائر
الهاتف و الفاكس: 63 94 51 (21)
التوزيع(جوال): 08 53 62 (0661)

(٩) برقم (٨٢).

(١٠) برقم (٢٢٩٣٧)، وأخرجه التِّرمذي (٢٦٢١)، وابن ماجه (١٠٧٩) من حديث بريدة ا، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٥٦٤).

(١١) برقم (٣٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.

سِلسِلَة مطويَّات الفضيلة (22)

ثلاث وصايا نبويَّة ﷺ عظيمة

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة للنشر والتوزيع